رضا الشبيبي الشاعر المجدد

بقلم : صالح جواد طعمة

لقد قمت برحلة الى الكويت لمهمة أدبية ، يعلمها الاستاذ عبد القدوس الانصاري ، ولقضاء ما تبقى من إجازتنا الصيفية وعدت ، وإذا برسالة الاستاذ الجليل منشىء هذه المجلة النيرة قد سبقتني بمدة طويلة وكان قد طلب فيها ان أكتب مقالا تحت هذا العنوان المذكور ، لمناسبة اصدار « المنهل » العدد السنوي الممتاز ، فحملت القلم وكتبت على جناح السرعة هذا المقال ليصل في الموعد المحدد ولكن مع هذا أخشى أن أكون قد تأخرت في الاجابة عن طلبه فعذراً على هذا التقصير والتأخير .

يحسن بالقارىء الكريم ، قبل ان ندخل في صلب الموضوع ، أن يعرف عن حياة هذا الشاعر وبيئته وأثرها في شعره ، ولهذا سنبدأ بذكر نبذة عابرة عن حياته وشعره .

من ارسل نظراته الى الشبيبي يره ذا قامة اقرب الى الطول منها الى الاعتدال وفيها بعض البدانة وسحنته قريبة للبياض تعبر عن صفاء خلقه ونبله ، ولحية — او شكت ان تكون كثه — بيضاء تدل على انه من عائلة دينية ، يرتدي بزة العلماء ، فعمامة على رأسه ، وجبة فضفاضة تغطي بدنه ، قد أطل من نافذة العمر على العقد السابع . . .

ولد في النجف الاشرف ، منحدراً من سلالة عريقة المجد ، ونشأ بين احضان أسرة لها مكانتها الدينية والادبية ، وكان والده الشيخ جواد الشبيبي — الشبيبي الكبير — شاعراً عالماً يلقب بشيخ الشعراء ، فلا غرو إذن ان يقتفي اثر والده فيدرس على ايدي علماء من العرب والعجم ، ثم ينصرف فيما بعد الى دراسة الكتب التاريخية والأدبية والفلسفية منفردا وكانت نتيجة دراساته ان الف « تاريخ الفلسفة » وهو كتاب ضخم يبحث فيه عن الفلسفة من أقدم عصورها الى هذا القرن وخص الفلسفة العربية اهتمامه الزائد ثم « فلاسفة اليهود في الاسلام » ويشتمل هذا الكتاب على تلخيص فلسفة « ابن كمونة » و « ابن ملكان » وغيرهم من مشاهير فلاسفة اليهود ، وله ايضاً « ادب النظر » في فن المناظرة و « تذكرة » كتب فيهما صادف من الكتب النادرة والآثار القيمة ، و « تاريخ النجف » وهذا تأريخ طويل يسرد فيه حوادث النجف ، وتطور العلوم والآداب فيها ، والتغييرات التي طرأت على النواحي الصحية والعمرانية والاجتماعية ، وهو ذو اطلاع واسع في اللغة ، وألف كتاباً يسمى [المأنوس من القاموس] وغيرها من المؤلفات الكثيرة إلا انه لم يطبع اي مؤلف له ولا ادري ما سبب هذا التماهل في طبع كتبه والتقصير في اسداء الخدمة لأبناء أمته ؟ !

ويعد اليوم عالماً في الفلسفة الشرقية « ١ » وقطباً من اقطاب النهضة الوطنية والفكرية في العراق ، إشتهر بدهائه وحنكته في معالجة المشاكل الاجتماعية والسياسية ، فلا عجب إن ارسل الى الحجاز في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٣٧ هـ ، للقيام بمهمة خطيرة وأدى ما عليه خير تأدية . ورحل من الحجاز الى الشام لدراسة القضية العربية .. وهكذا كان القوم يلتجؤن اليه في الظروف الحرجة لما عرف عنه . من صفاء وحنكة وطول أناة وقدرة فائقة على ابتكار خطط المعالجة وقد قام بتأليف كتاب عن « المسألة العراقية » وأبان المشاكل التي تعترضها وكيفية علاجها . وقدم خدمة مشكورة للثقافة في العراق حينما صار وزيراً لها وانتخب عدة مرات عضواً في المجلس النيابي وله اليوم صوت مدو في المعارضة ، ويتزعمها في المجلس . وهو مقل بالنظم « ٢ »

(١) لم نعهد لمعالي العلامة الشبيبي مؤلفاً في الفلسفة أو أنه يعد من الفلاسفة أو بما تعطي كلمة (فيلسوف) من معنى بل نعهد منه أنه ذو آراء أدبية واجتماعية كثيرة وأنه قد اشتغل بالقضية العربية . أما اذا صح هذا الادعاء من صاحب المقال فانا نرجو منه أو من معالي الشبيبي او من غيرهما أن يظهر اثراً له يكون كشاهد عدل . .

(٢) ان لمعالي الشبيبي نظماً كثيراً ونحن نستحضر منه ديواناً اكبر من ديوانه المطبوع قاله في مناسبات مختلفه يوم ان كان في النجف تناول فيه كثيراً من ابواب الشعر كالغزل والنسيب والمدح والرثاء وغيرها ولا ادري هل عز على معاليه ان يدخله في ديوانه أم لم يعثر عليه ، اما بعد دخوله المعارك السياسية فقد وجه مواهبه للجهاد والجلاد السياسي وبطبيعة الحال أصبح بعدئذ مقلا في النظم .

المحرر

ولا ينظم إلا إذا كان متأثرا وبعدما يقوله قطعاً من الكبد لايمكن ان تلقى وقت مايشاء أحدهم او عند اقتراح نفر فتراه ينشد :

ليس هذا الشعر ماتروونه ان هذا قطع من كبدي

له اسلوب متين في الكتابة ، وقدرة فائقة على المعالجة ولهذا تراه مكثراً من كتابة المقالات الاجتماعية والسياسية والشبيبي في شعره حائر مطمئن الى اضطرابه ، معترف بشكه فتراه مرة يدعي ان شبابنا طائش لايمكن الاستفادة منه وفي محل آخر لايرى غير الشباب مضمداً لجروح هذا الشعب الصريع .. وتارة يحمل على الخرافات واهلها واخرى يعود فيؤمن بالقدر ويعدّ من لايؤمن بذلك جاهلا .. و لئة يتساءل هل في هذه الدنيا عادل ومعتد، وحيران ومهتد وصامت وهدار الى غير ذلك من مواقف الحيرة والاضطراب..

ويشك فيما ذهب اليه العلماء من ان السماء فلك دائر والأرض كروية فيقول :

خبرونا عن السماء وقالوا فلك دائر وشكل كري
ربما صح مارأوه ولكن خير رأيك مايراه النبي

ويقف في شعره عند بعض المبادىء الحديثة كمبدأ ابقاء الانسب مثلا فيقول :

واذا تنازعت البقاء عوالم صح الاصح بقاؤه والاصلح

وله قصيدة طويلة في [تنازع البقاء] وغيرها من القصائد العلمية والفلسفية . . والشبيبي شاعر مبتكر ايضا وقد سجل له فيلسوف الاريكة « الريحاني » بيتاً فريداً لم يتردد لافي الشعر العربي ولا الشعر الانكليزي واليك هذا البيت الفريد :

وطالما سرت في وجه فلم أرني إلا وقد علقت يمناي بالباب

وبعد هذه النظرة الخاطفة الى حياة الشاعر وشعره ، نعود الى التجدد في شعره .

لقد حدثت في الشرق العربي خلال الخمسين سنة الماضية حوادث جسام وطرأت عليه تغييرات بينة وفي هذه السنين زالت دول وزالت معها نظم قديمة ، وحطت — في ربوع هذا الشرق البائس — دول أخرى وأتبعت نظم حديثة كان الفرق بينها وبين النظم القديمة بوناً بينا ..

وتهادى الشرق بين قيود المستعمرين وفي اغلال الاستعباد وكان مقوداً لأمراء الجمود ورؤساء الاقطاع ، مدعاة التقليد ثم صار مسرحاً للحروب والثورات بعد هجوع طال ليله . . فسرت يقظة ، ولاحت نهضة . . وبدت لعيون الناس في الافق تباشير الفجر المنير ، تبشر بالخير وتعبر عن أمل . . وساد الوعي ابناء هذا الشرق فتعالت اصواتهم الى عنان السماء منادية بالاصلاح والذود عن الكرامة والثورة على الظلم والعبودية .. وتحطيم الاغلال التي رسفوا فيها حيناً من الدهر طويلا . . فكان ما كان !

وكان شعراء هذه المرحلة اكثر وعياً من افراد الشرق الأخرين . . وكانوا مرآة صافية تعكس لهم مايتراى لها من آمال تطفح بها صدورهم . . وآلام تعانيها هذه الشعوب . . ولم يألوا جهداً في سبيل خدمتهم والمطالبة بحقوقهم والسير بهم الى التقدم .. وعبروا خير تعبير عن امانيهم . . وترنموا بأناشيد التضحية والثورة العذبة ، كان وقعها على الاسماع مؤثراً . . فبعثت في نفوسهم القوة والنشاط والامل وحب الكفاح في سبيل عيش هني يتمتعون به في ظلال الحرية . .

ومن الأمور المسلم بها ان يكون هؤلاء الشعراء من المجددين المهملين لمقاييس القدامى العقيمة السقيمة ، كالصناعات اللفظية والمحسنات البديعية والغلو في المدح والاقذاع في الهجو وغير هذا وذاك .. إذ كان همهم الوحيد ان يصوروا للمجتمع — بلا هوادة — مرارة الهوان والعبودية وعذوبة العزة وحلاوة التقدم و الحرية .. فكانت قصائدهم السياسية والاجتماعية ناطقة بما تعانيه وكيفية علاجه ... راغبين عن اتباع اساليب القرون المظلمة .

فظهر شعراء مجددون في البلاد العربية كأحمد شوقي بك وحافظ ابراهيم في مصر وفي الشام الأمير شكيب ارسلان وعبدالحميد الرافعي وفي العراق جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ورضا الشبيبي وغير هؤلاء وأولئك .. نشأ شاعرنا الشبيبي في محيط حافل بالتقاليد البالية فلم يربدأ وهو القائل « ان كانت للشاعر جولة في وجه من وجوه الاصلاح او ناحية من نواحي الخير وإذا ومضت في فنه شعلة تنير السبل الحالكة او علت صرخة تثير العزائم الخامدة .. او سرت نفحة تحيي

الرسم البالية فقد أدى الرسالة » أقول فلم يرَ بداً من السخرية بها ويصرخ مطالباً بالثورة عليها فاسمعه يقول :

دجى التقليد منك أضل قوماً ولولاه ضياهم تجلى

وهنا يستهزئ بأهل الضلال ويحمل عليهم بقوله :

عبدت أهلك لم يبطل نكيرهم على الطغاة فلم صاروا طواغيتا

ملفق من مخاريق كلامهم ومن محال وان أسموه لاهوتا

وفي موضع آخر ينشد متألماً صارخاً :

إلام أجوب القطر سال جهالة وماج تقاليداً وفاض خرابا؟!

وهناك يطالب بتحطيم قيود الجمود الذي سبب هـذا التأخر فينادي :

رمت أمم عنها الجمود فأفلحت على حين انا تحته الآن نزرح

ويدعو الملتجئين الى المشعوذين طلباً للشفاء او نكاية بأحد — سحراً — ان يتعلموا فالعلم يزيل مايصابون به من امراض ويضعف ايمانهم بالسحر والشعوذه وغير ذلك. ويردد:

الكاشف العلم لازجر ولا فال !

وهكذا نرى شاعرنا يثور على مايتبعه المجتمع من تقاليد لاتدرَ اي ربح علينا ، فلا غرو ان لقب بالمجدد ، وقد تربى ونشأ في احضان عائلة دينية في النجف تؤمن بما ثـار عليـه ... إلا ان المرحوم الريحاني في « قلب العراق « ٣ » يعد الشبيبي مقلداً قـد اختار لنفسه قيوداً ، ويقول هناك « وهو لا ينبذ ولا اظنه يستطيع ان ينبذ من عقله وقلبه ماورثه الشيعي العربي عن الاجداد اي الارث الشعري الأدبي الديني » ولا ادري مايعنيه هذا الفيلسوف : ايعني حكم الشاعر وعظاته وسوانحه في الاخلاق ؟ ! وهذا لاضير — بل الخير — فيه مادام يثير العزمات ويوقدا لهمم ويدعو الى الهداية .. ام يعني تعصب الشاعر لمذهبه « الشيعة » ؟ ولكن نراه يثور في شعره على هذه الشيع التي حدثت في الدين الاسلامي فيقول شاكياً متألماً ساخرا :

شيعاً اصبحوا ، فمعزلي ليس يصبو لرأيه الاشعري؟!

ويقول :

بالمرزية كم تفرق بيننا وتضاربنا الأضغان والأحقاد

لاتبرد الأكباد فيها بيننا حتى تذوب وتعطب الاكباد

ونلاحظ في ملامح وجهه وشعره نزعة الانسانية ، فهو يتألم من التفرقه الموجودة بين امم الدنيا فكيف إذن يتعصب للشيعة وتعصبه يبعث على التفرقة ويسبب الانشقاق ؟ اسمعه يشكو من اختلاف بني الانسانيا :

كيف اتحاد بني الدنيا وهم شـ موزع بين اشكال واقسام

تقاطعوا شيعاً كل يتعرسه كانهم لم يكونوا زرع ارحام

وهو الذي يرى أن .

أصح عباد الله دينا ومـلة مجاهد نفس لا المصلي المسبح

فكيف يتعصب لمذهبه ويفضله على المذاهب الاخرى؟!

انه لايتطرق قط في شعره الى الشيعة اوما تعتقده وتدين به .. وهو شاعر — قبل كل شيء — اجتماعي يتخذ من آلام مجتمعه مادة لشعره وان أردنا ان نأتي بأمثلة لضاق المقام بنا ولكن يكفي ان نشير إلى القارىء بمراجعة ومطالعة ديوانه .. ومما مضى نعرف ان شاعرنا الشبيبي مجدد من ناحية التقاليد الموروثة — اعني الاجتماعية — غير متبع — كما قلنا ماتبعه الشاعر القديم في الهجو والمدح والغزل قبل دخول الموضوع .. ولكن إذا نظرنا اليه بمنظار المدرسة الرومنطقية رأيناه ليس بالمتجدد كتجدد أفرادها وتلاميذها ، لأنه حريص على التقاليد الشعرية قلباً وقالباً ، كما يقول الريحاني ، وهذه المدرسة لاترى شاعراً كهذا يكون مجدداً ، ومن تصفح ديوانه لايجد منه خروجاً على القافية الواحدة ، والاوزان المتبعة ، ولكنه — كشاعر جاء خلفاً للقرون المظلمة — له يد في حمل لواء التجديد .

كربلا صالح جواد طعمة

---

(٣) مما يؤسف له ان كثيرين من نظراء الريحاني جاءوا العراق ولبثوا فيه امداً قصيراً ، ثم كتبوا عن احواله الاجتماعية والاقتصادية والعلمية مما لايمكن لهم تحقيقه إلا في امد طويل فلا غرو اذا رأينا الاستاذ صاحب المقال يدفع عن العلامة الشبيبي رأي الريحاني بدوء . ولا غرو ايضاً ان الاستاذ الكبير محمد مهدي الجواهري قد انتبه الى هذا الأمر وكتب فيه مقالا افتتاحياً في جريدته المحتجبه [الانقلاب] .

اطلب مجلة البيان في بغداد
من
مكتبة الأديب في سوق السراي ومخزن الانداس في شارع الرشيد